وتتصل بالمزية السابقة مزيةٌ أخرى هي التعقيد اللفظي والميل الى الغريب من المعاني . وقد وصف شعره بقوله .(١٧٣)

فكأنما هي في السماع جنادل وكأنّما هي في العيونِ كواكبُ
وغرائـــبٌ تأتـــيـــك الاّ أنـــسها لصنيعكَ الحسنِ الجميلِ أقاربُ

ولمس علي بن عبدالعزيز الجرجاني هذه الصفة في شعره فقال انه « تعسّف ما أمكن . وتغلغل في التصعب كيف قدر . ثم لم يرض بذلك حتى أضاف اليه طلب البديع . فتحمله من كل وجهٍ . وتوصل اليه بكل سببٍ . ولم يرض بهاتين الخليتين حتى اجتلب المعاني الغامضة . وقصد الاغراض الخفية . فاحتمل فيها كل غثٍ ثقيل . وأرصد لها الافكار بكلّ سبيل . فصار هذا الجنس من شعره اذا فرع السمعَ لم يصل الى القلب الا بعد اتعاب الفكر ، وكدّ الخاطر . والحمل على القريحة »(١٧٤) فمن اغرابه قوله .(١٧٥)

وركبٍ يساقون الركابَ زجاجةً من السير لم تقصد لها كفُّ قاطبِ
فقد أكلوا منها الغوارب بالسُرى فصارت لها أشباحهم كالغوارب(١٧٦)

لاغرو ان ظهر مثل هذا التصعيب في شعره ، فانه كان يقتسر المعنى البعيد او الاستعارة التي يتخيلها . ولا يبالي بما يأتيه من نقد . فقد سأله ابو العميثل اللغوي ، لم تقول مالا يفهم ؟ فأجابه على الفور ، ولمَ لا تفهم ما يقال ؟(١٧٧) . وهذا الامر دفع الناقد العباسي المشهور علي بن عبدالعزيز الجرجاني الى القول ، ان ديوانه مشحون بالغموض والتعقيد .(١٧٨)

ومهما قيل في أبي تمام .(١٧٩) . فانه يبقى ذلك الشاعر العربي الكبير الذي يشنّف الاسماعَ بأقوى الشعر وأجزله . وقد صدق ابن رشيق حين قال : « انما سمي

---

(١٧٣) ديوانه ١ ، ١٧٤ .
(١٧٤) الوساطة ص ١٩
(١٧٥) ديوانه ١ ، ٢٠١
(١٧٦) جعل ابو تمام السير خمراً صرفاً ، يديرها الركبان بينهم فتورثهم شدة في سيرهم من غير تفكير بمآل ، ثم ان اجهاد النياق بالسير قد اذاب سنامها ، وكان السير الكثير ايضاً قد انحلهم هم انفسهم فاصبحت اجسامهم النحيلة كأنها هي سنام الابل .
(١٧٧) اخبار ابي تمام ص ٧٢ .
(١٧٨) الوساطة ص ٤٨٩ .
(١٧٩) لنظر ، الحركة النقدية حول مذهب ابي تمام ١ ، ١٤٤ ـ ٢٤٨ ، ٢٤٩ ـ ٥٥٧ .

الشاعر شاعراً ؟ لانه يشعر بما لايشعر به غيره . فاذا لم يكن عند الشاعر توليد معنى ولا اختراعه . او استظراف لفظ وابتداعه . او زيادة فيما أجحف فيه غيره من المعاني . أو نقص مما اطاله سواه من الالفاظ . أو صرف معنى الى وجه عن وجه اخر . كان اسم الشاعر عليه مجازاً لا حقيقة . ولم يكن له الا فضل الوزن »(١٨٠)

وصل البحتري الى حمص والتقى بأبي تمام . وأنشده شعره أمام مجموعة من الشعراء الحاضرين آنذاك . فأقبل عليه . وأكرمه . وقال له : أنت أشعرُ مَنْ أنشدني . فكيف حالك ؟ فشكا اليه خُلّة . فكتب الى أهل معرة النعمان في شأنه . فاستقبلوه بحفاوة . ولمسوا نباهته . وشاعريته الجيدة . ووظّفوا له أربعة آلاف درهم . كانت أول مالٍ أصابه بالشعر(١٨٤)

وفي رواية أخرى تقول : إنه التقى بأبي تمام في مجلس أبي سعيد الثغري أمير الجزيرة . قال البحتري : « أول مارأيت أبا تمام أنّي دخلت على أبي سعيد محمد ابن يوسف . وقد مدحته بقصيدتي :

أفاقَ ضَبٌّ من هوىً فأفيقا ؟ أو خانَ عهداً أم أطاعَ شفيقاً ؟

فسُرّبها أبو سعيد . وقال : أحسنتَ والله يافتى وأجدتَ ... ودعاني أبو تمام . وضمّني اليه . وعانقني . وأقبل يُقرّظني . ولزمته بعد ذلك . وأخذتُ عنه . واقتديتُ به(١٨٥) » ويُرجّح الصولي أنّ هذه الرواية ربما كانت قبل ذهابه الى معرة النعمان .

قويت علاقته بأبي تمام . وسمع منه وصيةً بليغة في صناعة الشعر أفاد منها في مسيرة حياته الأدبية(١٨٦). وبقي وفياً مخلصاً له. حتى انهُ سُئل: «انّ الناس يزعمون أنك أشعرُ من أبي تمام . فقال : والله ماينفعني هذا القولُ . ولا يضرُّ أبا تمام . والله ماأكلتُ الخبزَ إلاّ به . ولو وددتُ أنّ الأمر كان كما قالوا . ولكنّي والله تابعٌ له . آخذٌ منه . لائذٌ به . نسيمي عند هوائه . وأرضي تنخفضُ عند سمائه(١٨٧)

ولما اشتدّ أزرُه في نظم الشعر . ولم تتّسع ديارُه لأدبه . أقبل الى العراق . وهي زاهية بجلال الملك . ناعمة بغضارة العيش. فاحتضنته . وخدبتْ علمه . وكان قدومه

---

(١٨٤) أخبار البحتري ص ٦٦ .
(١٨٥) الأغاني ٢١ : ٤١ وانظر الموازنة ص ١٣ ، والديوان ٢ : ١٤٥ .
(١٨٦) انظر الوصية في العمدة ٢ : ١١٤ ، زهر الآداب ١ : ١١٠ .
(١٨٧) الأغاني ٢١ : ٤٠ .

زمن الخليفة الواثق . ولكن شهرته ظهرت في عهد المتوكل . اذْ صار لسان هذا الخليفة . يمدحُه . ويُمجّده . ويُسجّلُ أعمالَه في قصائد عامرة . ويصاحبُه في رحلته الى دمشق . ويقول له :(١٨٨)

يالِمامَ الهدى الذي إحـ ـتاطَ للدّين . واجتهدْ
سِرْ بسَعْدِ السُّعودِ في صُحبةِ الواحدِ الصَّمدْ !
وابقَ في العزّ والعُلَـ ـوّ لنا آخرَ الأبدْ !

وحين يقفلُ راجعاً الى بغداد ينظم أيضا قصيدةً . منها :(١٨٩)

فاسفرَ وجهُ الشرقِ حتى كأنّما تبلّجَ فيه البدرُ بعد أفوله
وقد لبستْ بغدادُ أحسنَ زيّها لإقباله . واستشرفتْ لعدوله
لعمري لقد آبَ الخليفةُ جعفرٌ وفي كلّ نفسٍ حاجةٌ مِن قفوله

وتوثّقتْ صلته بهذا الخليفة . وأصبح نديمه . كما توثقت علاقته بوزيره الفتح بن خاقان الذي عُرف بتكريم الشعراء والحدب عليهم . وظلّت هذه العلاقة الحميمة زهاء خمسة عشر عاماً . كانت من أهنأ أيام البحتري وأسعدها . حتى قُتل الخليفة ووزيره الفتح على مرأى من بصره في مجلس منادمةٍ في قصره سنة ٢٤٧

زمن الخليفة الواثق . ولكن شهرته ظهرت في عهد المتوكل . اذْ صار لسان هذا الخليفة . يمدحه . ويُمجّده . ويُسجّل أعماله في قصائد عامرة . ويصاحبه في رحلته الى دمشق . ويقول له :(٤٨٨)

يا إمامَ الهدى الذي احـ ـتاط للدين . واجتهدْ
سِرْ بسَعْدِ السُّعودِ في صُحبةِ الواحدِ الصَّمدْ !
وابقَ في العزِّ والعُلَـ ـوِّ لنا آخرَ الأبدْ !

وحين يقفلُ راجعاً الى بغداد ينظم أيضا قصيدةً . منها :(٤٨٩)

فأسفَرَ وجهُ الشَّرقِ حتى كأنّما تبلّجَ فيه البدرُ بعد أفولِهِ
وقد لبستْ بغدادُ أحسنَ زيّها لإقبالِهِ . واستشرفتْ لعدولِهِ
لعمري لقد آبَ الخليفةُ جعفرٌ وفي كلِّ نفسٍ حاجةٌ مِن قفولِهِ

وتوثّقتْ صلته بهذا الخليفة . وأصبح نديمه . كما توثقت علاقته بوزيره الفتح بن خاقان الذي عُرف بتكريم الشعراء والحدب عليهم . وظلّت هذه العلاقة الحميمة زهاء خمسة عشرَ عاماً . كانت من أهنأ أيام البحتري وأسعدها . حتى قُتل الخليفة ووزيره الفتح على مرأى من بصره في مجلس منادمة في قصره سنة ٢٤٧ للهجرة بمؤامرة خطيرة اشترك فيها ابنه المنتصر(٤٩٠) . وهرب البحتري متوجعاً متألماً يلاحقه شبح الجريمة . ورثى الخليفة المقتول وعرّضَ بابنه في قصيدة تتوشّحُ بثوب الصدق وتدلُّ على وفاء شديد . مطلعها(٤٩١) :

محلٌّ على القاطولِ أخلقَ دائرُهْ وعادتْ صروفُ الدّهرِ جيشاً تغاورُهْ(٤٩٢)

ومنها :

---

(٤٨٨) ديوانه ٢ : ٧٠٨ .

(٤٨٩) ديوانه ٢ : ١٦٢٤ .

(٤٩٠) ينظر البحتري في سامراء ص ٢٦٩ ـ ٢٨٥ .

(٤٩١) ديوانه ٢ : ١٠٤٧ .

(٤٩٢) القاطول : نهير من دجلة كان في موضع سامراء كان عليه القصر الجعفري . أخلق : بلي . الدائر : البالي . صروف الدهر : نوازله . تغاوره : تحاربه .

صريعٌ تقاضاه السُّيوفُ حُشاشةً يَجودُ بها . والموتُ خمْرٌ أظافرُهْ
أدافعُ عنه باليدينِ . ولم يكنْ ليَثْنِي الأعادي أعزلُ اللّيلِ حاسِرُهْ
ولو كانَ سيفي ساعةَ القتلِ في يدي درَى القاتلُ العجلانُ كيف أساوِرُهْ
سرامُ عليَّ الراحُ بعدكَ . أو أرى دماً بدمٍ يجري على الأرضِ مائرُهْ

توجّه البحتري الى مكة وأدّى فريضة الحج . ومنها سافر الى منبج حيث أهله وذويه . ولكنه لم يستطع البقاء فيها بعد أن رأى النعمة والثراء في بلاط الخلافة . فعاد مسرعاً الى سرّ مَن رأى وأرضى الخليفة المنتصر بقصيدة أشاد فيها بحلمه ورأفته ـ ولم يدم حكم هذا الخليفة أكثر من ستة أشهر . إذ فاجأه الموت سنة ٢٤٨ للهجرة . وجاء بعده المستعين . ولم يبتعد البحتري عن دار الخلافة . فاتصل بهذا الخليفة الجديد وخصّهُ بعدّه قصائد . وفي سنة ٢٥١ للهجرة اتصل البحتري بالمعتز بعد وفاة المستعين . وحظي بجوائز كثيرة . وتولّى المهتدي الخلافة سنة ٢٥٥ للهجرة

صريعٌ تقاضاه السُيوفُ حُشاشةً يَجودُ بها . والموتُ خُمْرٌ أظافرُهْ
أدافعُ عنه باليدين . ولم يكنْ ليَثْنِي الأعادي أعزلُ اللَّيلِ حاسِرُهْ
ولو كانَ سيفي ساعةَ القتلِ في يدي درَى القاتلُ العجلانُ كيف أساوِرُهْ
سرامُ عليَّ الراحُ بعدكَ . أو أرى دماً بدمٍ يجري على الأرضِ مائرُهْ

توجّه البحتري الى مكة وأدّى فريضة الحج . ومنها سافر الى منبج حيث أهله وذويه . ولكنه لم يستطع البقاء فيها بعد أن رأى النعمة والثراء في بلاط الخلافة . فعاد مسرعاً الى سرّ مَن رأى وأرضى الخليفة المنتصر بقصيدة أشاد فيها بحلمه ورأفته ـ ولم يدم حكم هذا الخليفة أكثر من ستة أشهر . إذ فاجأه الموت سنة ٢٤٨ للهجرة . وجاء بعده المستعين . ولم يبتعد البحتري عن دار الخلافة . فاتصل بهذا الخليفة الجديد وخصّهُ بعدّه قصائد . وفي سنة ٢٥١ للهجرة اتصل البحتري بالمعتز بعد وفاة المستعين . وحظي بجوائز كثيرة . وتولّى المهتدي الخلافة سنة ٢٥٥ للهجرة ومدحه بقصائد أشاد فيها بزهده وورعه وعدله وشجاعته في محاربة الروم . وبعد سنة خلع هذا الخليفة وولّي مكانه المعتمد . وهو آخر الخلفاء الذين اتصل بهم البحتري ومدحهم ونال رفْدهم . وهكذا كانت علاقته بالخلفاء . يستقبل خليفة ويُودّع آخر . وقد أثرى ثراءً كبيراً . وأصبح صاحب أموالٍ وضياع كثيرة . حتى قيل : « كان مليّاً قد فاض كسبهُ من الشعر . وكان يركبُ في موكبٍ من عبيده »(٤٩٣) .

وبعد وفاة الخليفة المعتمد سنة ٢٧٩ للهجرة عاد البحتري الى موطنه الأصلي . ومكث فيه الى أن أدركته المنية سنة ٢٨٤ للهجرة تاركاً وراءه ديواناً ضخماً وكتاب « الحماسة » . وآخر بعنوان « معاني الشعر » لم يصل الينا .

شعره :

كان البحتري شاعراً فناناً مجيداً مبدعاً . استطاع بموهبته الفذّة وطبعه المتدفق أن يُقدّم شعراً جميلاً شبيهاً « بسلاسل الذهب » كما يقول ابن خلكان(٤٩٤)

ن

(٤٩٣) العمدة ٢ : ١٨٥ .
(٤٩٤) وفيات الأعيان ٦ : ٢٢ .

وصل الينا شعر البحتري في ديوان كبير . حوى كلّ أبواب الشعر العربي المعروفة . والمديح هو أكبر باب في هذا الديوان ، فانه احترفَ هذا الفن وجعله وسيلةً لتحسين الحال وجمع المال . فله في مديح الخلفاء والأمراء والوزراء والقواد وأعيان الدولة شعر كثير . وجد في نفوسهم هوىً وقبولاً حسناً . وقد عدّه أبو هلال العسكري من أكبر المداحين . وذكر له قصيدةً في مدح الفتح بن خاقان . منها قوله :

أغرُّ لـه مـن جُودِه وسـماحـه ظـهيرٌ عليه مايخيبُ وشافعُ
ولما جرى للمجد والقوم خلفَهُ تَفَوّلَ أقصى جهدهم وهو وادعُ
وهل يتكافا الناسُ شتىً خِلالُهُمْ وما تتكافا في اليدين الأصابعُ
اذا ارتدّ صمتاً فالرؤوسُ نواكسٌ وإنْ قالَ فالأعناقُ صُورٌ خواضعُ
ولا يعلمُ الأعداءُ من فَرْطِ عزمِهِ متى هو مَصْبُوبٌ عليهم فواقعُ

وعقّب في خاتمة القصيدة بقوله : « لم يبقَ وجهٌ من وجوه المدح في الجود والشجاعة وتصوب الرأي ومضاء العزيمة والدهاء وشدّة الفكر الاّ قد اجتمع ذكرهُ في هذه الأبيات . ولا أعرفُ أحداً يستوفي مثل هذه المعاني في أكثر مدائحه الاّ البحتري »(٤٩٥) .

وهو في نظر ابن خلكان محسنٌ كلّ الإحسانِ في المديح . وأورد له أبياتاً من قصيدته الرائية المشهورة في الخليفة المتوكل وهو يخرج لأداء صلاة عيد الفطر .

وصل الينا شعر البحتري في ديوان كبير. حَوَى كلَّ أبواب الشعر العربي المعروفة. والمديح هو أكبر باب في هذا الديوان؛ فانه احترفَ هذا الفن وجعله وسيلةً لتحسين الحال وجمع المال. فله في مديح الخلفاء والأمراء والوزراء والقواد وأعيان الدولة شعر كثير. وجد في نفوسهم هوىً وقبولاً حسناً. وقد عدّه أبو هلال العسكري من أكبر المداحين. وذكر له قصيدةً في مدح الفتح بن خاقان. منها قوله:

أغرُّ لـــه مـــن جُودِهِ وســـماحـــهِ ظـهـيرٌ عليه مايخيبُ وشافعُ
ولما جرى للمجد والقوم خلفَهُ تَفَوُّلُ أقصى جهدهم وهو وادعُ
وهل يتكافا الناسُ شتىً خِلالُهُمْ وما تتكافا في اليدين الأصابعُ
اذا ارتدَّ صمتاً فالرؤوسُ نواكسٌ وإنْ قالَ فالأعناقُ صُورٌ خواضعُ
ولا يعلمُ الأعداءُ من فَرْطِ عزمِهِ متى هو مَصْبُوبٌ عليهم فواقعُ

وعقّبَ في خاتمة القصيدة بقوله: «لم يبقَ وجهٌ من وجوه المدح في الجود والشجاعة وتصوب الرأي ومضاء العزيمة والدهاء وشدّة الفكر الا قد اجتمع ذكرهُ في هذه الأبيات. ولا أعرفُ أحداً يستوفي مثل هذه المعاني في أكثر مدائحه الا البحتري»(٢٩٥).

وهو في نظر ابن خلكان محسنٌ كلَّ الإحسانِ في المديح. وأورد له أبياتاً من قصيدته الرائية المشهورة في الخليفة المتوكل وهو يخرج لأداء صلاة عيد الفطر. وأوّلها:

(٢٩٥) ديوان المعاني ١، ٥٧. وينظر ديوانه ٢، ١٣٠٢.

أخفي هوى لكَ في الضلوع وأظهرُ وألامُ مـن كَـمَدٍ عـلـيـكَ وأعذرُ

ومنها:

ذكروا بطلعتكَ النبيَّ فهلّلُوا لما طلعتَ من الصُفوفِ وكبّرُوا
حتى انتهيتَ الى المصلّى لاباً نورَ الهدى يبدو عليكَ ويظهرُ
ومشيتَ مشْيةَ خاشعٍ متواضعٍ لله لا يُزْهى ولا يَـتـكـبّرُ

وعلق عليها بقوله: «هذا الشعرُ هو السحرُ الحلالُ على الحقيقة. والسهلُ الممتنعُ. فللهِ درُّه! ماأسلسَ قياده. وأعذبَ ألفاظه. وأحسنَ سبكَه. وألطفَ مقاصده. وليس فيه من الحشو شيءٌ. بل جميعه نُخَبٌ»(٢٩٦). وكما أشاد ابن خلكان بهذه القصيدة، فقد أشاد بها كثيرٌ من الباحثين المعاصرين وعدُّوها من قصائده الفريدة في جودة المبنى وروعة المعنى(٢٩٧)

لقد تميز شعره المدحي بمتانةِ الألفاظ. وجودة الأسلوب. وحسنِ العرض ورقّةِ الجرس الموسيقي التي تستهوي السامع. ويبدو أنه عمل بوصية أستاذه أبي تمام حين قال له: «اذا أخذتَ في مديح سيدٍ ذي أيادٍ فأشهرْ مناقبَهُ. وأظهرْ مناسبَهُ. وأبنْ معالمَهُ. وشرّفْ مقامَه. ونضّد المعاني. واحذر المجهول منها. وإياك أنْ تَشينَ شعْرَكَ بالألفاظ الرديئة. ولتكن كأنّك خياطٌ يقطعُ الثياب على مقادير الأجساد»(٢٩٨).

أرقُّ الناس نسيباً .وأصلحهم طريقة. لاسيما إنْ ذكرَ الطيف . فإنَّه البابُ الذي شُهِرَ به »(٥٠٠) ومن شعره الشفاف الآسر قوله في فاتنته »(٥٠١)

خيالٌ يعتريني في المنام ... لِكرَى اللَّحظ . فاتنةِ القوام
لغلْوَة إنَّها شَجَنٌ لنفسي ... وبَلْبالٌ لِقلبي المستهام
اذا سَفَرتْ رأيتَ الطُرفَ بحتاً ... ونار الحُسن ساطعة الضِّرام
سلامُ اللهِ كلُّ صباح يوم ... عليكِ . ومَن يُبلِّغُ لي سلامي ؟
لقد غادرتِ في قلبي سقاماً ... بما في مقلتيكِ من السِّهام
لئن قلَّ التواصلُ أو تَمادى ... بِنا الهجرانُ عاماً بعد عام
فكم من نظرةٍ لي من قريبٍ ... إليكِ . وزورةٍ لكِ في المنام !
أتتخذُ العراقَ هوى ودارا ... ومَنْ أهواهُ في أرضِ الشآم ؟

والبحتري شاعر وصّاف من الدرجة الأولى . له مقدرةٌ فائقةٌ على تصوير مظاهرِ الحضارة . ومباهج العمران . ونِعَمِ الحياة . والطبيعةِ الخلّابة برياضها وأزهارها . وله قدرة فذة في تقديم صور متحركة لموكب الخلافة . والجيش . والأسطول الحربي .. وكذلك وصف حياة البادية ومشاقّها وما فيها من حيوان كالناقة والذئب والأسد .. وقد حقّق في كل ذلك تفوقاً كبيراً مايضعهُ ضمن أعظم الوصافين العرب . واليك هذه الأرجوزة اللطيفة بوقعها الموسيقي المحبب ولغتها الجميلة السهلة في وصف سحابة ذات رعد وبرق . ألقت مطرها على الأرض . فرويت وتفتحت أزهار رياضها . وامتلأت غدرانها بالمياه(٥٠٢) :

ذاتُ ارتجازٍ بحنينِ الرَّعدِ ... مجرورةُ الذَّيلِ . صدوقُ الوعدِ
مفوحةُ الدَّمعِ لغيرِ وَجْدِ ... لها نسيمٌ كنسيمِ الوَرْدِ
ورنَّةٌ مثلُ زئيرِ الأُسْدِ ... ولمعُ بَرْقٍ كسيوفِ الهندِ
جاءَتْ بها ريحُ الصَّبا من نجدِ ... فانتشرَتْ مثلَ انتشارِ العِقدِ
فراحتِ الأرضُ بعيشٍ رَغْدِ ... من وَشْيِ أنوارِ الرَّبيعِ في بردِ
كأنَّما غدرانُها في الوَهْدِ ... يلعبنَ من خبابها بالنَّرْدِ

---

(٥٠٠) العمدة ٢ : ١١٩ .
(٥٠١) ديوانه ٢ : ١٩٣٢ .
(٥٠٢) ديوانه ١ : ٥٦٧ .

وللبحتري شعر جيد في رثاء مَنْ رُزيء به . يفيضُ حزناً وألماً وحسرة . وقد مرَّت بنا قصيدته في رثاء المتوكل التي قال فيها أبو العباس ثعلب ، « ماقيلتْ هاشميةٌ أحسن منها . وقد صرّح فيها تصريح منْ أذهلته المصائب عن تخوّف العواقب »(٥٠٣) . ومن مراثيه القوية أيضاً ماقاله في القائد محمد بن يوسف الثغري وولده يوسف بعد مقتلهما. قال أبو الفرج الأصبهاني، «ومراثيه فيهما أجود من مدائحه. وَرُوِيَ أنه قيل له في ذلك. فقال، من تمام الوفاء أنْ تَفْضُلَ المراثي المدائحَ »(٥٠٤). وله قصيدة رائعة في رثاء الفرسان الأبطال من بني حُميد الطائي الذين استشهدوا في ساحة الحرب دفاعاً عن الكرامة والشرف والوطن . منها قوله(٥٠٥) :

تدانتْ منا ياهم بهم . وتباعدتْ ... مضاجعُهمْ عن تُربكَ المتنسِّم
فكلٌ له قبرٌ غريبٌ ببلدةٍ ... فمنْ مُنجدٍ نائي الضريح ومُتهم
قبورٌ بأطرافِ الثُّغور كأنَّما ... مواقعُها منها مواقعُ أنجُم
مضوا يستلئمونَ المنايا خفيظةً ... وحفظاً لذاكَ المُؤْثَدِ المتقدِّم
ولما رأوا بعضَ الحياةِ مذلَّةً ... عليهمْ وعزَّ الموتِ غيرَ مُحرَّم
أبوا أنْ يذوقوا العيشَ والذُّلُّ واقعٌ ... عليه . وماتوا ميتةً لم تُذَمَّم

وكان البحتري موفور الحظ في شعر العتاب. فله فيه صور دقيقة. قال ابن رشيق، « وأحسن الناس طريقاً في عتاب الأشراف شيخ الصناعة وسيد الجماعة أبو عبادة البحتري »(٥٠٦) . أما الهجاء فانه كأستاذه أبي تمام لم يكن مُوفّقاً فيه . أو بالأحرى لم يكن مطبوعاً فيه . وقد نوّه أبو الفرج الأصبهاني بذلك . فقال : « شاعرٌ فاضل .

أخفي هوى لك في الضلوع وأظهرْ وألامُ من كَمَدٍ عليك وأعذرْ ومنها :

ذكروا بطلعتك النبيّ فهلّلوا لما طلعتَ من الصُفوفِ وكبّروا
حتى انتهيتَ الى المصلّى لاباً نورَ الهدى يبدو عليكَ ويظهرْ
ومشيتَ مشْيةَ خاشعٍ متواضعٍ للهِ لا يُزْهى ولا يتكبّرْ

وعلق عليها بقوله : « هذا الشعرُ هو السحرُ الحلالُ على الحقيقة . والسهلُ الممتنعُ . فللهِ درُّه ! ماأسلسَ قياده . وأعذبَ ألفاظه . وأحسنَ سبْكه . وألطفَ مقاصده . وليس فيه من الحشو شيءٌ . بل جميعه نُخَبٌ »(٤٩٦) . وكما أشاد ابن خلكان بهذه القصيدة . فقد أشاد بها كثيرٌ من الباحثين المعاصرين وعدُّوها من قصائده الفريدة في جودة المبنى وروعة المعنى(٤٩٧)

لقد تميز شعره المدحي بمتانةِ الألفاظ . وجودة الأسلوب . وحسنِ العرض ورقّةِ الجرسِ الموسيقي التي تستهوي السامع . ويبدو أنه عمل بوصية أستاذه أبي تمام حين قال له : « اذا أخذتَ في مديح سيدٍ ذي أيادٍ فأشهرْ مناقبَهُ . وأظهرْ مناسبَهُ . وأبنْ معالمَهُ . وشرّفْ مقامَه . ونضّد المعاني . واحذرِ المجهول منها . وإياك أنْ تُشينَ شِعْرَك بالألفاظ الرديئة . ولتكن كأنّك خياطٌ يقطعُ الثياب على مقادير الأجساد »(٤٩٨) .

وأجاد البحتري في الغزل . وقدّم شعراً يسيلُ رقّةً وعذوبةً في « علوة » . تلك الغادة الحسناء التي تولّع بها وصبا اليها في مطلع شبابه . ولم يحظَ بها . اذ تزوّجتْ من رجلٍ آخر . ولكنّه لم يسلُ عنها . وظلّ طيفُها يعاوده طوال حياته . وضُرِبَ به المثل بين الأدباء . فأصبحوا يقولون : أرقّ من طيف البحتري . وقد كانت أغلب شواهد الشريف المرتضى في كتابه « طيف الخيال » من شعره . اذْ ذكره في بضعةٍ وسبعينَ موضعاً(٤٩٩) . ولا عجب في ذلك : فإنّ ابن رشيق قال : « البحتري

---

(٤٩٦) وفيات الأعيان ٦ : ٣٦ .

(٤٩٧) ينظر : حياة البحتري وفنه ص ١٥٨ ، تاريخ الأدب العربي ، العصر العباسي الثاني ص ٢٩٠ ، البحتري في سامراء ص ١٧١ ، الشعراء والشعراء في العصر العباسي ص ٧٠٨ ، البحتري بين نقاد عصره ص ١٧٣ .

(٤٩٨) زهر الآداب ١ : ١١٠ .

(٤٩٩) ينظر : طيف الخيال (الفهرس) ص ١٤٨ ـ ١٥٨ .

أرقُّ الناس نسيباً ،وأصلحهم طريقة. لاسيما إنْ ذكرَ الطيف . فإنّه البابُ الذي شُهِرَ به »(٥٠٠) ومن شعره الشفاف الآسر قوله في فاتنته :(٥٠١)

خيالٌ يعتريني في المنامِ لِسكرى اللّحظِ . فاتنةِ القوامِ
لِغلْوَةَ إنّها شجنٌ لنفسي وبلْبالٌ لِقلبي المستهامِ
اذا سفرَتْ رأيتَ الظّرفَ بحتاً ونارَ الحسنِ ساطعةَ الضّرامِ
سلامُ اللهِ كلَّ صباحِ يومٍ عليكِ . ومَن يُبلّغُ لي سلامي ؟
لقد غادرتِ في قلبي سقاماً بما في مقلتيكِ من السّهامِ
لئن قلّ التواصلُ أو تعادى بِنا الهجرانُ عاماً بعدَ عامِ
فكم مِن نظرةٍ لي مِنْ قريبٍ إليكِ . وزورةٍ لكِ في المنامِ !
أتتّخذُ العراقَ هوى ودارا ومَنْ أهواهُ في أرضِ الشآمِ ؟

والبحتري شاعر وصّاف من الدرجة الأولى . له مقدرةٌ فائقةٌ على تصوير مظاهرِ الحضارة . ومباهج العمران . ونِعَمِ الحياة . والطبيعةِ الخلّابة برياضها وأزهارها . وله قدرة فذّة في تقديم صور متحركة لموكب الخلافة . والجيش . والأسطول الحربي .. وكذلك وصف حياة البادية ومشاقّها وما فيها من حيوان كالناقة والذئب والأسد .. وقد حقّق في كل ذلك تفوقاً كبيراً مايضعهُ ضمن أعظم الوصافين العرب . واليكَ هذه

وللبحتري شعر جيد في رثاء مَنْ رُزيء به . يفيضُ حزناً وألماً وحسرة . وقد مرَّت بنا قصيدته في رثاء المتوكل التي قال فيها أبو العباس ثعلب ، « ماقيلتْ هاشميةٌ أحسن منها . وقد صرَّح فيها تصريح منْ أذهلته المصائب عن تخوّف العواقب »(٥٠٢) . ومن مراثيه القوية أيضاً ماقاله في القائد محمد بن يوسف الثغري وولده يوسف بعد مقتلهما. قال أبو الفرج الأصبهاني: «ومراثيه فيهما أجود من مدائحه. ورُوِي أنه قيل له في ذلك. فقال: من تمام الوفاء أنْ تَفْضُلَ المراثي المدائحَ »(٥٠٣). وله قصيدة رائعة في رثاء الفرسان الأبطال من بني حُميد الطائي الذين استشهدوا في ساحة الحرب دفاعاً عن الكرامة والشرف والوطن . منها قوله(٥٠٤) :

تدانتْ مناياهم بهم . وتباعدتْ ... مضاجعُهمْ عن تُربك المتنسِّم
فكلٌ له قبرٌ غريبٌ ببلدةٍ ... فمنْ مُنجدٍ نائي الضريح ومُتهم
قبورٌ بأطراف الثُّغور كأنّما ... مواقعُها منها مواقعُ أنجُم
مضوا يَستلذُّونَ المنايا خفيظةً ... وحِفظاً لذاك المُؤْثِرِ المتقدِّم
ولما رأوا بعضَ الحياةِ مذلّةً ... عليهمْ وعزَّ الموتِ غيرَ مُحرَّم
أبوا أنْ يذوقوا العيشَ والذُّمُّ واقعٌ ... عليه . وماتوا ميتةً لم تُذَمَّم

وكان البحتري موفور الحظ في شعر العتاب. فله فيه صور دقيقة. قال ابن رشيق: « وأحسن الناس طريقاً في عتاب الأشراف شيخ الصناعة وسيد الجماعة أبو عبادة البحتري »(٥٠٥) . أما الهجاء فانه كأستاذه أبي تمام لم يكن مُوفَّقاً فيه . أو بالأحرى لم يكن مطبوعاً فيه . وقد نوّه أبو الفرج الأصبهاني بذلك . فقال : « شاعرٌ فاضل . حسنُ المذهب . نقيُّ الكلام . مطبوعٌ . كان مشايخنا رحمةُ الله عليهم يختمون به الشعراء . وله تصرُّفٌ حسنٌ فاضل نقيٌّ في ضروب الشعر . سوى الهجاء . فإنَّ بضاعته فيه نزرةٌ . وجيِّده منه قليل »(٥٠٦)

اذا ما الجرحُ رُمَّ على فسادٍ تَبيَّنَ فيه تفريطُ الطبيبِ

خصائص شعره :

ان من أميز خصائص شعر البحتري الوضوح الذي لاتعقيد فيه ولا ابتدال . الى جانب اللغة الصافية الشفافة التي لاتختنق بجرائر التفلسف والمنطق . والالتزام بالايقاع الجميل في ظل موسيقى هادئة مريحة . والتوسط في استخدام المحسنات اللفظية والمعنوية في صياغة رائعة وكأنها كما يقول ابن الأثير : « نساء حسان عليهنَّ غلائل مُصبَّغات وقد تحلينَ بأصنافِ الحلي »(٥٠٧) . وقد أشار البحتري بنفسه الى مذهبه الشعري في الابيات الآتية :(٥٠٨)

كلفتمونا حدودَ منطقكم ... في الشِّعرِ يُلْفَى عن صدقهِ كَذِبُهْ
ولم يكُنْ ذو القُروح يلهجُ بالـ ... منطقِ ، مانوعُهُ . وما سَبَبُهْ(٥٠٩)
والشِّعرُ لمحٌ . تكفي اشارتُهُ ... وليس بالهذرِ . طُوِّلَتْ خُطبُهْ
لو أن ذاك الشريفَ وازنَ بيـ ... ـنَ اللفظِ واختار لم يقل ، شَجَبُهْ(٥١٠)
واللفظ خَلْيُ المعنى . وليس يُريـ ... ـكَ الصُّفْرَ حسناً يُريكهُ ذَهَبُهْ(٥١١)

---

(٥٠٨) ديوانه ١١ ، ٢٢٤ .
(٥٠٩) ديوانه ١ ، ١٠٠
(٥١٠) المثل السائر ١ ، ١٧٨
(٥١١) ديوانه ١ ، ٢٠٩ .
(٥١٢) ذو القروح ، امرؤ القيس .
(٥١٣) يريه بالشريف ، عبيدالله بن عبدالله بن طاهر الذي جرت بينه وبين البحتري مناقشة بالشعر تجدها في الديوان .
(٥١٤) الصفر ، النحاس الأصفر .

ولا يعني هذا أن البحتري تخلّى عن تراثه القديم . بل العكس . فانه جمع في شعره بين مذهب القدامى ومذهب المحدثين . أخذ عن القديم الجزالة والفصاحة والمتانة . وعن الحديث الرقة والعذوبة والسلاسة . وقد أصاب الآمدي في قوله : « ان شعر الوليد بن عبيد البحتري صحيحُ السَّبْكِ . حَسَنُ الديباجةِ . وليس فيه سَفْسافٌ ولا رديءٌ ولا مطروحٌ . ولهذا صار مُستوياً يشبه بعضه بعضاً ... وما فارق عمود الشعر المعروف . وكان يتجنّب التعقيد . ومستكره الألفاظ . ووحشيّ الكلام »(٥١٥) .

لقد نال اعجاب اغلب الدارسين ومحبي الشعر . وعدّوه أطبع المحدثين والمولدين ، لأنه « يرسل نفسه على سجيتها إرسالاً . ويعبّرُ عن عواطفه كما يُعبّرُ الناس جميعاً حين يحبون أو يبغضون . فليس غريباً أنْ يجد كلُّ انسانٍ من معاصريه مرآةً لهذه العواطف التي يشعر بها في حياته . وفيما يختلف عليها من ظروف »(٥١٦)